روتشيلد . وقد قام مونتفيوري بزيارة الشرق بضع مرات وانه ابتاع عام ١٨٥٥ بستان برتقال بالقرب من يافا ، الا أنه لم يستطع استمالة أي مستوطن يهودي .. » ويلاحظ ان هذا المشروع من اقدم المحاولات الحديثة للتوطين اليهودي في فلسطين .

واخيرا يتحدث لوتسكي في الفصل الختامي عن الحرب العالمية الاولى ، كحرب امبريالية تستهدف اعادة اقتسام العالم ومناطق النفوذ وكيف استخدم الطرفان المتحاربان الاراضي العربية ومواردها والمواصلات ، كما وضعت الطاقة البشرية في غير مصلحة الشعوب العربية التي هي بدورها معادية الطرفين المتحاربين . كما يتناول تفاصيل عن المفاوضات السرية لاقتسام البلدان العربية ودور روسيا القيصرية فيها . وبصدد فلسطين يتحدث لوتسكي عن العمليات العسكرية التي قامت بها القوات البريطانية على اراضيها ضد الاتراك ، وحول وعد بلفور والمطامح الصهيونية في البلاد ، يلاحظ لوتسكي ان رغم المساندة البريطانية، «ورغم حياد السلطات التركية العطوفة » ورغم التبرعات السخية والاعتمادات المالية الصهيونية المختلفة لم يحصل الصهاينة في غضون الثلاثين عاما التي سبقت الحرب العالمية الاولى على اية نتائج ملموسة ويقول « ولم يكن في فلسطين في عشية الحرب الا ٤٣ قرية يهودية بلغ عدد سكانها ١٣ الف معمر ، وخلال الاعوام ١٨٨٢ — ١٩١٤ ، دخل البلاد حوالي ٤٥ الف مهاجر ، وفي عام ١٩١٤ لم يكد يبلغ سكان فلسطين اليهود ٩٠ الف شخص». ويلاحظ لوتسكي الترابط المصلحي بين المستعمرين الانجليز والصهيونية في انشاء وطن قومي لليهود ، كما يشير الى سخط الشعوب العربية على بريطانيا على اثر نشر وعد بلفور ، وعلى اثر نشر حكومة روسيا السوفييتية للمعاهدات السرية الخاصة باقتسام الامبراطورية العثمانية ومن ضمنها اتفاقية سايكس — بيكو .

ملاحظات ختامية : على الرغم من ان كتاب لوتسكي هو من الكتب القليلة النادرة التي تصدت لكتابة تاريخنا العربي الحديث بروح التحليل العلمي ، الا ان الكتاب لم يحافظ على هذا النهج كلية ، فهو يهبط احيانا الى مستوى السرد التاريخي المحض . ولعل من المهم ان ننوه بالفصل الثالث المتعلق بمصر تحت حكم محمد علي ، الذي هو من اجمل الفصول واكثرها جذالة وخصوبة . وكذلك الفصل الاول الذي اعطى خلفية شاملة لاوضاع الوطن العربي عشية الاحتلال العثماني واثناءه .

وثمة عيب آخر يشمل الكتاب عموما هو خلوه من الاسناد والمراجع والمصادر التي اعتمدها في المادة التاريخية . وربما كان صدور الكتاب وتحريره بعد وفاة مؤلفه هو المسؤول عن هذا النقص .

واخيرا ، ان صدور كتاب لوتسكي الهام يدفعنا الى الاشارة الى ظهور عدد من الدراسات التاريخية الماركسية حول تاريخ المنطقة ، في وقت نحن احوج ما نكون لفهم طبيعة تطورات منطقتنا العربية ، كما هو الحال مع كتاب الباحث التركي ديفيتسيوغلو « النموذج الاقتصادي للعهد العثماني في القرنين الرابع عشر والخامس عشر » ودراسة دومينيك شيفاليه « اسباب الاضطرابات الفلاحية في كسروان عام ١٨٥٨ » وكتابات فؤاد قازان حول « الاقطاعية ومراحل تطورها في عهد دولة المماليك » ودراسة الباحثة الروسية سيمليانسكايا حول الحركة المناوئة للاقطاع في لبنان خلال القرن التاسع عشر . ولا يفوتنا ان نشير ان للوتسكي نفسه مقالة هامة عن فلسطين نشرت في مجلة « مشاكل زراعية » السوفييتية (الجزء الرابع ، المجلد ٤/٣ سنة ١٩٣٣) تحت عنوان « الامبريالية الانجليزية وثورة تشرين الاول في فلسطين » . وقد ترجمها رياض يونس ونشرتها مجلة « دراسات عربية » ضمن كتاب خاص صدر في تموز ١٩٧١ باسم « المقاومة الفلسطينية : الواقع والتوقعات » . ان حدود هذه الدراسات العميقة والمشبعة بالروح العلمية تحفزنا هنا الى مطالبة دور النشر العربية وبوجه خاص مركز الابحاث الفلسطيني الى ايلاء المؤلفات التاريخية المتصلة بالمنطقة العربية وفلسطين اهمية خاصة . ففي مقدمة ايفانوف لكتاب لوتسكي اشارات متعددة الى بعض الكتب التي صدرت بالروسية او بلغات سوفييتية تتصل بتاريخ فلسطين والمنطقة ، وهي الكتب التي يمكن ان تكون حافزا لتعاون مثمر بين مركز الابحاث ودور النشر السوفييتية لايصال هذه المؤلفات الى العربية .

هاني حوراني